«المشروع الإيراني» بين استراتيجيّتَيْ الهجوم والدفاع

طلال عتريسي(*)

أستاذ علم الاجتماع، وباحث في القضايا الإقليمية ـ لبنان.

ـ ١ ـ

يشير بعض الباحثين العرب من موقع الاتهام والتشكيك إلى «مشروع إيران» في الشرق الأوسط. وغالباً ما يقصد هؤلاء بهذا المشروع دور إيران السلبي ونواياها التوسعية، أو رغبتها في استعادة الطموحات الإمبراطورية السابقة، تحت ستار المواجهة مع الولايات المتحدة والدفاع عن الإسلام وعن القضية الفلسطينية، التي تتخذ من دعم حركات المقاومة في لبنان وفلسطين حجّة لمدّ النفوذ والتأثير والهيمنة على شعوب المنطقة العربية والإسلامية.

لا يمكن إنكار أن الطموحات الإيرانية كانت كبيرة بعد انتصار الثورة مباشرة. وكان كثير من القادة ومن رجال الدين الذين ساهموا وشاركوا في صنع الثورة، يتحدثون بسهولة، وحتّى ببساطة، عن توقّعاتهم وتمنياتهم بحصول ثورات أخرى في المنطقة العربية على غرار ثورتهم التي قلبوا فيها نظام الشاه... بحيث كان يخيّل للسامع آنذاك أنَّ الشعوب الأخرى تأخرت كثيراً في الانقلاب على حكوماتها، وفي جعلها حكومات إسلامية. ولم يخفِ هؤلاء القادة استعداد بلادهم لتقديم يد العون والمساعدة من أجل نجاح الثورات في البلدان المجاورة أو حتّى البعيدة. وما قيل عن تصدير الثورة في هذا الإطار لم يكن مشروعاً، بل كان مجرد حماسة ثورية تتوافق مع تلك الطموحات لرؤية التغيير الإسلامي يعمّ العالم. وحتّى لو كان تصدير الثورة مشروعاً واعياً على سبيل الافتراض، فإن الحرب العراقية التي اندلعت بعد سنة

(*) من مؤلّفاته: **دولة بلا رجال: جدل الإصلاح والسيادة في الشرق الأوسط** (٢٠٠٥)؛ **الجمهورية الصعبة: إيران في تحولاتها الداخلية وسياساتها الخارجية** (٢٠٠٦)، و**جيواستراتيجيا الهضبة الإيرانية: إشكاليات وبدائل** (٢٠٠٩). البريد الإلكتروني: atrissi_talal@hotmail. com.

واحدة فقط على انتصار الثورة، عطلت هذا المشروع، وجعلت النظام الإسلامي يغرق في الدفاع عن نفسه، وعن وجوده طيلة ثماني سنوات، في واحدة من أطول الحروب في العصر الحديث (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨)؛ بحيث لم يعد تصدير الثورة أولوية بالنسبة إلى النظام في إيران. وبحسب هذا الافتراض، فقد نجحت إيران بعد الحرب في إنقاذ النظام الذي كان مهدداً، وتخلّت عن، أو فشلت في تصدير الثورة إلى البلدان العربية... والدليل على ذلك أيضاً أن أولوية إيران بعد الحرب في عهد الرئيس هاشمي رفسنجاني، وعلى امتداد ولايتين كاملتين، أي ثماني سنوات أخرى بعد سنوات الحرب (١٩٨٩ ـ ١٩٩٧)، كانت لإعادة الإعمار والتنمية والانفتاح على العالم. فكانت بمعنى ما سنوات التوجّه نحو الداخل، ولملمة جراح الحرب والقطيعة مع سياساتها التي اتسمت بالتوتر مع البلدان العربية، ومع أوروبا، ومع معظم دول العالم، لأنها وقفت خلف العراق في الحرب. فكان المشروع الإيراني في هذه المرحلة، وحتّى عام ١٩٩٧، مشروع الانفتاح على الخارج والبناء وإعادة الإعمار في الداخل. ولم يكن في ذلك أي ضير على البلدان العربية. ولم يثر حفيظتها، ولم توجّه إلى إيران، طوال تلك الفترة كلها، تهمة العمل من أجل «مشروع» خفي أو معلن أو ملتبس، لا بل كانت بداية التسعينيات مرحلة عودة العلاقات الدبلوماسية مع معظم البلدان العربية، وفي مقدمتها العربية السعودية.

بعد ذلك التاريخ، وبين أعوام ١٩٩٧ و٢٠٠٥، كان محمّد خاتمي رئيساً لإيران. ومن المعلوم أن خاتمي كان صاحب رؤية إصلاحية اتسمت بدورها بمزيد من الانفتاح في الداخل الإيراني، وعلى الخارج الغربي والعربي. وقد لقي خاتمي الترحاب والاستقبال في معظم العواصم العربية والعالمية، ونال الإعجاب في الأوساط الثقافية والسياسية العربية المختلفة، دون أن يثير الأمر أي شكوك حول «المشروع الإيراني» أو أي شكاوى منه، بل حظي خاتمي بالتعاطف العربي في الكثير مما كتب عن إيران في تلك المرحلة في مواجهة خصومه من المحافظين في الداخل الإيراني. ومهما قيل في نجاح التجربة الإصلاحية أو فشلها، فإن الانشغال الإيراني طوال الحقبة الخاتمية تركّز في بداياتها حول الخلافات الداخلية، وفي نهاياتها حول مواجهة الضغوط الأمريكية، والدفاع عن البرنامج النووي، ومواجهة العقوبات التي بدأت الولايات المتحدة تنفيذها تباعاً على إيران من خلال مجلس الأمن، خاصة أن احتلال العراق عام ٢٠٠٣ قلب المعادلات الإقليمية رأساً على عقب، وجعل إيران دولة مستهدفة بعد العراق بما هي دولة «مارقة» وفي «محور الشر»، وراعية لـ «الإرهاب» وداعمة له (حركات المقاومة في لبنان وفلسطين)، وهذا هو المشروع الإيراني، بحسب التصنيف الأمريكي. ولقد أفصح المحافظون الجدد في الولايات المتحدة عن رغبتهم بتغيير الهياكل والبنى السياسية والاجتماعية في الشرق الأوسط الجديد تارة، والكبير تارة أخرى... وكانت إيران واحدة من الدول المستهدفة علانية في إطار هذا التغيير[١].

---

(١) انظر: ستيفان هالبر وجوناثان كلارك، **التفرد الأمريكي: المحافظون الجدد والنظام العالمي**، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥)، و«ثورة المحافظين الجدد،» في: جيل كيبيل، **الفتنة: حروب في ديار المسلمين**، ترجمة نزار أورفلي (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٤)، الفصل الأول.

إذاً، لم يكن ثمة مشروع إيراني مثير للقلق في الأذهان العربية منذ عام ١٩٧٩، وعلى الأقل حتّى سقوط بغداد عام ٢٠٠٣ (أي طوال ٢٤ عاماً). ولم يكتب البعض عن هذا «المشروع» المفترض إلا في أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية عندما وصفت إيران بالفارسيّة في مواجهة العروبة والقومية... وعندما توقفت الحرب، تراجعت تلك الأدبيات، وتراجع معها التشكيك بـ «المشروع الإيراني».

ـ ٢ ـ

إن مراجعة وقائع وتحوّلات السنوات الماضية في إيران، وفي الشرق الأوسط، يمكن أن تسمح لنا بالفرضية التالية: إن إيران امتلكت طموحاً لتغيير العالم ودعوته إلى الإسلام، وليس لتغيير المنطقة العربية فقط. ولكنها لم تمتلك مشروعاً عملياً لهذا التغيير. وهذا أمر طبيعي ومنطقي في دولة ـ وحتّى في أحزاب أو في مجموعات ومنظمات ـ تتبنى أيديولوجية معيّنة أو تعتنق ديناً سماوياً تطمح معه إلى هداية البشر جميعاً. لقد كان مثل هذا الطموح موجوداً لدى القيادة الإيرانية بعد انتصار الثورة، وعند الإمام الخميني بِشكل خاص. وقد وجّه الإمام رسالته الشهيرة إلى غورباتشوف، عندما كان هذا الأخير زعيماً للاتحاد السوفياتي، قبل تفكّكه بنحو عام واحد، دعاه فيها إلى اعتناق الإسلام، قائلاً له إن الشيوعية ستصبح في متاحف التاريخ. ولم يكفّ الإمام عن دعوة الحكومات الإسلامية أيضاً إلى العودة إلى الإسلام، وإلى التحرّر من الوصاية الخارجية والتصدّي للاستكبار العالمي. لكن إيران في الوقت نفسه لم تمتلك، لا تفاصيل، ولا خطط، ولا أدوات، هذا المشروع التغييري على المستوى العالمي. وبقي الأمر في حدود الدعوة والتمنيات والتطلّعات والقناعة بأن الإسلام هو البديل لِكُلّ الأفكار والأيديولوجيات الأخرى في العالم... ولم يظهر ما يدلّ على أن إيران تمتلك في الوقت نفسه أي مشروع لتغيير المنطقة أو للسيطرة عليها. ومثل هذا الاعتقاد مبالغ فيه أصلاً، وينسب إلى الثورة الفتية ما لم تمتلكه فعلياً، وما لم تقدر عليه في الوقت نفسه.

أما ما حصل من دعم لبعض المجموعات أو الأحزاب الإسلامية أو الشيعية في بعض بلدان الخليج ـ وهو أبرز ما قامت به الثورة بعد انتصارها في إطار تهمة التمدّد إلى الخارج ـ فلم يكن جزءاً من مشروع شامل أو متكامل، لم نر عناصره الباقية أو المكمّله له في أي سلوك آخر، بل ارتبط هذا الدعم بمغامرات بعض الاتجاهات السياسية في الداخل الإيراني حيناً (مثل مكتب حركات التحرير الذي أعدم لاحقاً، المسؤول عنه مهدي هاشمي)، وحيناً آخر بالرغبة في مضايقة الحكومات الخليجية ردّاً على دعمها اللامحدود للعراق في حربه مع إيران.

إن «المشروع الإيراني» الذي يتحدث عنه بعض العرب، بصيغة الاتهام، خاصة المثقفين منهم، يتلخص بـ «الهيمنة الإقليمية»، أي أنَّ إيران وفقاً لهذه التهمة تعمل من أجل الهيمنة على الشرق الأوسط، بما في ذلك الهيمنة على البلدان العربية التي تنتمي بطبيعة الحال إلى الشرق الأوسط. ويستند من يذهب إلى هذا الافتراض إلى الدور الإيراني المتنامي في العراق، ثمّ يوسّع

دائرة الربط مع الواقع العراقي إلى علاقة إيران مع حزب الله في لبنان، ومع حركة حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين، وصولاً إلى العلاقة الاستراتيجية مع سورية، كبراهين على مشروع الهيمنة الذي تعمل إيران على تحقيقه منذ سنوات طويلة[٢].

لكن علاقة إيران مع حزب الله، على سبيل المثال، لم تكن في دائرة التخطيط الاستراتيجي الإيراني بعد انتصار الثورة مباشرة، باستثناء ما تعتبره إيران واجب دعم المسلمين في أي مكان، انسجاماً مع أيديولوجيتها الإسلامية ومع طبيعة النظام الإسلامي. فقد نشأ الحزب في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، وقدمت إيران له الدعم والمساندة والتدريب. ونجح الحزب لاحقاً في التحوّل إلى أهم مقاومة ضدّ إسرائيل منذ احتلال فلسطين قبل أكثر من نصف قرن. وكان من المحتمل أن يفشل الحزب، وأن لا يحقق كلّ تلك الإنجازات التي حققها في مقاومته ضدّ إسرائيل على امتداد ٢٨ عاماً. وفي مثل هذه الحالة ـ أي الفشل ـ لما تحدّث أحد بِكُلّ تأكيد عن مشروع إيراني للتمدّد عبر حزب الله أو عبر الشيعة إلى لبنان أو إلى الشرق الأوسط. ولكن في مثل هذا الاحتمال، فإن إسرائيل التي قام وجودها على أيديولوجية التوسّع والسيطرة، هي التي كانت ستحقّق المزيد من التقدّم، ومن الهيمنة، ومن التمدّد، إلى أراض عربية أخرى بعد بقائها في الأراضي اللبنانية التي احتلتها (والتي لم تنسحب منها إلا بعد انقضاء ٢٥ عاماً على الرغم من القرار الدولي الرقم (٤٢٥) الذي يدعوها إلى الانسحاب). ولو لم يحصل الاجتياح الإسرائيلي للبنان في ذلك العام (١٩٨٢)، لكان من الصعب أن نتخيّل وجود حزب الله الحالي وطبيعة الدور الذي سيقوم به. وهذا ما نقصده بأن نشأة الحزب لم تكن في الأصل جزءاً من منظور إيران الاستراتيجي للتمدّد أو للهيمنة، بل ربما كانت الصورة أوضح، وحتّى أبسط، من ذلك. فقد حصل احتلال وارتأى البعض ـ وليس الكلّ ـ ضرورة المقاومة والاستعداد لها، فحصل الدعم والتأييد من إيران، الثورة الفتية المتحمسة، التي تعتبر إسرائيل في الوقت نفسه عدواً وكياناً سرطانياً ينبغي إزالته من الوجود، بحسب الإمام الخميني. وهذه الثورة هي التي قامت مباشرة بعد نجاحها باستلام الحكم بإقفال السفارة الإسرائيلية في طهران، وافتتاح سفارة فلسطين بديلاً منها. وهكذا، انقضت ثلاث سنوات من المقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في لبنان قبل أنْ يظهر حزب الله إلى الوجود عام ١٩٨٥.

ـ ٣ ـ

وحتّى على مستوى فلسطين: ماذا لو كانت التسوية قد نجحت منذ اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وحصل الفلسطينيون بعدها على الدولة الموعودة؟ ألم تكن أبواب الدعم الإيراني للحركات الإسلامية والجهادية (والتدخل) في فلسطين أكثر صعوبة، أو حتّى استحالة؟

---

(٢) انظر على سبيل المثال: «إجراءات لإعاقة الهيمنة الإيرانية،» **الحياة**، ٢٨/١/٢٠٠٩، وباروخ بينا، «تزايد الهيمنة الإيرانية،» موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، ١٩/٩/٢٠٠٧.

إن ما جرى في لبنان بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢، وأدى إلى ولادة حزب الله، ينطبق على احتلال العراق عام ٢٠٠٣. فلو لم يحصل هذا الاحتلال، وبقي النظام السابق على حاله، لما شهدنا بِكُلّ تأكيد هذا التوسّع في النفوذ الإيراني إلى الداخل العراقي. وما فعلته إيران لجهة ملء الفراغ الاستراتيجي الذي نجم عن سقوط النظام كان أمراً طبيعياً لسببين:

الأوّل عجز العرب الفاضح عن المبادرة، والارتباك في التعامل مع الواقع الجديد بعد سقوط النظام (الفراغ العربي).

و**الثاني** خوف إيران على أمنها القومي من الوجود الأمريكي (١٥٠ ألف جندي) في العراق الذي تمتد حدوده مع إيران إلى ١٤٤٨ كم. ومن الطبيعي في هذه الحالة المركّبة من الفراغ والاحتلال ألا يكون هاجس إيران هو استعادة الدور العربي المفقود، أو تهدئة المخاوف العربية، أو بثّ الاطمئنان في نفوس الحكومات العربية من دورها، ومن نشاطها المتسارع في العراق. فجلّ همّ إيران كان ألا يعاد تركيب السلطة في العراق الجديد على القاعدة السابقة نفسها من العداء لها والتوتر معها، الذي قاد قبل سنوات قليلة فقط، لم تمحَ بعد من ذاكرة الجيل الإيراني الحالي، إلى حرب طاحنة ومدمّرة. ولذا، عملت إيران على خطيْن متوازييْن (وربما متناقضين): إرباك الوجود الأمريكي في العراق ـ دعم المقاومة ـ من جهة، ودعم القوى الشيعية الصاعدة إلى الحكم ـ وهي قوى صديقة لإيران ـ بغضّ النظر عن شروط هذا الصعود وعلاقته بالاحتلال الذي أسقط النظام السابق.

ثمة مسألة لا يلتفت إليها كثيراً بعض المعنيين بقضية إيران في المجالات البحثية والسياسية في الوطن العربي، ولا يعيرونها الاهتمام الذي تستحق، ذلك أن التهمة التي وجّهت إلى إيران بعلاقتها بالشيعة في المنطقة، وبمحاولات الهيمنة على قرارهم (الهلال الشيعي) وبالتعاطف الشيعي معها[٣]، لا يمكن النظر إليه من زاوية واحدة فقط، بل ينبغي النظر إلى هذا التعاطف ـ على الرغم من التفاوت الكبير فيه بين بيئة شيعية وأخرى ـ بما هو دليل على أزمة عميقة كانت موجودة في قلب المجتمعات العربية، تعيشها الجماعات الشيعية التي لم تحصل على حقوقها أو على المساواة الكاملة مع مواطنيها الآخرين في هذا البلد أو ذاك في الخليج أو في العراق، أو حتّى في لبنان.

لقد عمّ صمت طويل حول واقع الشيعة في بلدانهم طوال العقود الماضية، ولكن هذا الصمت لم يكن يعني على الإطلاق أنّ المشكلة لم تكن موجودة. ولذا، كان من الطبيعي أن يتسارع الحراك الشيعي بِكُلّ تناقضاته ومستوياته المختلفة، عندما انزاح السقف الصلب الذي كان يضغط لمنع التعبير أو لمنع الحصول على الحقوق هنا أو هناك. إن مفاجأة ما يسميه البعض «صعود الشيعة» لم تكن إيران وحدها هي المسؤولة عنه، بل كان للحكومات العربية أيضاً دورها (السلبي) في تشجيع هذا الصعود عندما لم تتمكن، أو لم تعمل بجهود

---

(٣) موشيه ماعوز، «الهلال الشيعي: الواقع والأسطورة،» مركز صبان لسياسة الشرق الأوسط، ١٥/ ١١/ ٢٠٠٧، ترجمة مجموعة الخدمات البحثية، بيروت، . <http://www.ipileb.com/pdf/SP/middleeast/sp200.pdf>

أكبر على دمج هؤلاء الشيعة كمواطنين، لهم ما لغيرهم دون أي تمييز أو استثناء[٤].

بهذا المعنى، لا يمكن أن نلوم إيران عندما تنظر إلى أحوال الشيعة بعين التعاطف أو تفكّر في جذبهم إليها، ولا يمكن أن تلقى التهم على الشيعة عندما يرون في إيران صديقاً أو حليفاً... (فالفراغ الناتج من تردّي حال الشيعة يشبه الفراغ الناتج من سقوط النظام في العراق).

إن الافتراض بأن مشروع إيران هو الهيمنة على الشرق الأوسط هو افتراض تبسيطي. وهو افتراض يتجاهل أو يختزل أدوار القوى الأخرى الإقليمية والدولية في الشرق الأوسط التي لن تقف متفرّجة على إيران أو على سواها، وهي تتوسع وتتمدّد لتهيمن على الشرق الأوسط، وعلى مقدّراته السياسية وغير السياسية. ومن المعلوم أن هذه المنطقة الاستراتيجية هي عقدة الصراعات الدولية قديماً وحديثاً، وأن الولايات المتحدة دون أي اختلاف بين إدارة وأخرى، جمهورية وديمقراطية، تعتبرها في قلب مصالحها الاستراتيجية، لأن هذه المصالح تقوم على ركيزتين: حماية أمن إسرائيل، وحماية تدفق النفط. فكيف يمكن والحالة هذه أن تسمح الولايات المتحدة لدولة مثل إيران، هي على خصومة معها، وذات نظام إسلامي، وتعلن جهاراً عداءها لإسرائيل، أن تسيطر على الشرق الأوسط بمثل تلك البساطة التي يفترضها البعض؟ ربما أمكن القول إن الفراغ العربي، والعجز عن مواجهة واقع ما بعد احتلال العراق، وسقوط النظام، هو الذي ضخّم الدور الإيراني وجعله ملتبساً في أذهان البعض، بحيث رآه مشروعاً للهيمنة دون أي انتباه لأدوار القوى الأخرى المعيقة والممانعة للدور الإيراني. ومن المعلوم أيضاً أن قوى دولية أخرى غير الولايات المتحدة باتت أكثر اهتماماً بالشرق الأوسط وبثرواته النفطية، مثل الصين تحديداً، التي تزداد حاجتها إلى الحصول على نفط الشرق الأوسط، والتي من السذاجة الافتراض أنّها والقوى الأخرى ستتسامح أو ستغضّ الطرف عن مشروع إيراني للهيمنة على هذه المنطقة، بحيث تتحكم إيران في مستقبل حاجات الصين والولايات المتحدة وأوروبا واليابان من النفط من دون أن يحرّك أحد ساكناً.

ـ ٤ ـ

إن أي مقارنة مع الدول الإقليمية ذات القدرة على الهيمنة تبيّن أن إسرائيل، على سبيل المثال، التي تحميها قوة مهيمنة دولية (الولايات المتحدة)، هي الوحيدة التي لا تخفي نزعتها إلى الهيمنة التي تراها تمتد من الفرات إلى النيل، حتّى لو لم يعد لديها القدرة على هذا الامتداد وتلك الهيمنة، بعد الهزائم التي مُنيَت بها، والضربات التي وجّهت إليها في السنوات الماضية. ولكنها دولة قام وجودها على الهيمنة والتمدّد واحتلال أراضي الآخرين. وقد استطاعت أنْ تفعل ذلك في العقود الماضية. وهي لم تبدّل عقيدتها التوسّعية إلى اليوم. ولديها من الدعم الدولي السياسي والمادي، ومن القدرات العسكرية، ما يسمح لها باستمرار التفكير في هذا الأمر.

لقد ظهر المشروع الإيراني وكأنه مشروع هجومي بسبب الفراغ العربي الذي أشرنا

---

(٤) انظر الفصل الأول من كتاب: ولي نصر، **صحوة الشيعة**، ترجمة سامي الكعكي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧).

إليه، وبسبب النجاحات التي حقّقها حزب الله كحركة مقاومة ضدّ الاحتلال، وبسبب فشل التسوية في فلسطين، ثمّ بسبب التراجع الأمريكي العام، عن تحقيق الأهداف في المنطقة الذي لعبت فيها إيران وحلفائها دوراً مهماً. لكن في واقع الأمر، إن المشروع الإيراني لغاية اليوم هو مشروع دفاعي في جوهره. فـ «النظام الإسلامي»، منذ انتصار الثورة، محاصر ومهدّد، والعقوبات عليه لم تتوقف. ومنعه من الحصول على التقنيات المتقدمة متواصل. والاعتراف بدوره الإقليمي المتناسب مع حجمه وموقعه لم يحصل. والولايات المتحدة ربطت طوال سنوات بين برنامج إيران النووي وضربة عسكرية توجّه إلى إيران، وتقضي ليس فقط على هذا البرنامج، بل على النظام نفسه أيضاً. وإسرائيل أيضاً لم تكفّ عن توجيه التهديدات إلى النظام، ولا عن التلويح بشنّ عملية عسكرية للقضاء على منشآته النووية[٥]. وهذا النظام تعرّض لحرب شنّها النظام العراقي السابق عليه استمرت ثماني سنوات. ومع الحرب التي شنّتها الولايات المتحدة على الإرهاب أصبحت إيران دولة في محور الشر، بعد أن كانت فقط دولة تدعم الإرهاب. وإذا أضفنا إلى ذلك كلّه الوجود العسكري الأمريكي في الجوار الإيراني، في أفغانستان والعراق، وفي دول أخرى في آسيا الوسطى، والمحاولات الأمريكية لزعزعة الاستقرار الداخلي عبر دعم الأقليات العرقية والدينية في الداخل الإيراني... أمكن القول بفرضية البعد الدفاعي في السياسة الإيرانية، حتّى لو اتخذ شكل الهجوم في هذا الموقع أو ذاك، وخاصة في العراق أو في أمكنة أخرى، سواء على المستويات السياسية (الدعوة إلى إزالة إسرائيل من الوجود، والتشدّد في الحق النووي)، أو العسكرية (استعراض القوة عبر المناورات والأسلحة المتطورة). ومقارنة بأنظمة أخرى في الشرق الأوسط، تبدو إيران الدولة الوحيدة المهدّدة بإطاحة نظامها من الخارج، في حين إن الدول الأخرى تبدو مهدّدة من الداخل، أي بالانقلاب أو بالتمرّد الشعبي.

ـ ٥ ـ

إن كلّ الوقائع تؤكد أن الولايات المتحدة هي التي تحوّلت إلى الهجوم الدولي بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بذريعة محاربة الإرهاب. وقد كتب الكثير عن مشروع المحافظين الجدد الذين وجدوا في ما جرى في ذلك اليوم ذريعة مناسبة للانقضاض على العالم، وإرغامه على جعل الحرب على الإرهاب أولوية، كما تريد الولايات المتحدة. وبالعودة إلى تلك المرحلة، نرى أن دول العالم تراجعت أمام هذا الهجوم الأمريكي بعدما أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة بعد غياب الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٩١. هكذا التحقت أوروبا بالحرب على الإرهاب، وأدانت إيران الاعتداء الذي حصل في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وشاركت باقي دول العالم في تقديم المعلومات واعتقال «الإرهابيين» والمشتبه بهم... لكن ذروة الهجوم الأمريكي كانت في احتلال العراق عام ٢٠٠٣ بعد إسقاط نظام طالبان في أفغانستان، وما رافق هذا الاحتلال من وعيد وتهديد لباقي دول المنطقة بتغيير أنظمتها وسلوكها وبناها الاجتماعية والسياسية، كما جاء في تصريحات المسؤولين الأمريكيين في ذلك الوقت، وفي أدبيات

(٥) مجموعة من الكتاب والباحثين الإسرائيليين، **إسرائيل والمشروع النووي الإيراني**، ترجمة أحمد أبو هدبة (دمشق: مركز الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٦).

المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية؛ أي أنَّ السمة العامة للوضعيْن، الإقليمي والدولي، منذ عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٣ (الاحتلال الأمريكي المباشر)، وحتّى إلى عام ٢٠٠٥، كانت سمة الهجوم الأمريكي الواسع والشامل. ومن المستحيل أن يترافق مثل هذا الهجوم مع هجوم إيراني مواز بهدف «الهيمنة» و«التمدّد»، في الوقت الذي لم تتمكن باقي الدول الكبرى في العالم من فعل ذلك، على الرغم من اعتراضها على الحرب الأمريكية على العراق.

إن ما فعلته إيران في ظلّ الحصار والعقوبات، ثمّ مع الوجود العسكري الأمريكي في جوارها كان دفاعاً استراتيجياً عن نفسها، وعن نظامها، وعن أمنها القومي المهدّد، وبما يتوافق إلى حدّ بعيد مع «الثوابت» التي تتمسك بها في الاستقلال عن السياسات الأمريكية، وفي العداء للكيان الصهيوني. حاولت إيران في هذا الإطار الدفاعي، تعزيز جبهة الحلفاء في الشرق الأوسط، من سورية إلى لبنان، ومن العراق إلى فلسطين (وهو ما أطلق عليه «محور الممانعة»، وحتّى هذه التسمية هي تسمية دفاعية في مضمونها)، وعملت على إنهاك الولايات المتحدة في العراق، ودعم حركات المقاومة ضدّ إسرائيل حليفة الولايات المتحدة، والتمدّد بقدر استطاعتها، وبقدر الفراغ المتاح، باتجاه الواقع العراقي لمزيد من النفوذ الإقليمي، وللتأثير في السلطة التي تتشكّل هناك. وكانت في الوقت نفسه تحاول ألا تظهر أي نقاط ضعف (التمسك دون تردّد في حقها النووي، وعدم وقف التخصيب)، وتعمل بِكُلّ ما أوتيت من حنكة ومهارة وقوة عبر التفاوض، ومن خلال العلاقة مع روسيا والصين، وحتّى مع الاتحاد الأوروبي (عبرالتسهيلات النفطية والتجارية) لتجنّب استفرادها أو استضعافها، وللحدّ من العقوبات التي تفرضها عليها الولايات المتحدة في مجلس الأمن، حتّى لا تتحول تلك العقوبات إلى ذريعة للحرب عليها، كما حصل سابقاً مع العراق، وحتّى تمنع تشكّل الشرق الأوسط الجديد، كما ترغب فيه الإدارة الأمريكية. ما يعني أنَّ الجهود التي بذلتها إيران في السنوات الماضية قبل احتلال العراق وبعده، والتحالفات التي عقدتها، والأسلحة التي أعلنت عن تطويرها، والمناورات التي قامت بها، والتدخلات التي مارستها، والحوارات التي أجرتها، حتّى مع الولايات المتحدة، يمكن تلخيصها بهاجس الدفاع، وليس الهيمنة ـ غير الممكنة ـ في مواجهة هجوم القوة الأمريكية العظمى، الدبلوماسي والعسكري، على منطقة الشرق الأوسط، وعلى العالم.

حتّى حلفاء إيران أيضاً كانوا في موقع الدفاع والاستهداف، من النظام في سورية الذي تعرّض لمحاولات إسقاطه ولزعزعة استقراره بعد إخراج القوات السورية من لبنان عام ٢٠٠٥، إلى حزب الله الذي تعرّض في صيف ٢٠٠٦ لـ ٣٣ يوماً من الحرب الإسرائيلية للقضاء عليه واجتثاثه ونزع سلاحه، إلى حركة حماس في فلسطين التي تعرّضت للحصار ولمحاولات إسقاطها بعد نجاحها في الانتخابات التشريعية، وبعد رئاستها الحكومة الفلسطينية عام ٢٠٠٧، فمنعت عنها الأموال والمساعدات، وأقفلت أبواب معظم العواصم العربية والعالمية أمام إسماعيل هنية (حماس)، رئيس الحكومة الفلسطينية... أي إن هؤلاء الحلفاء المفترضين لإيران كانوا يتعرّضون للحصار ولمحاولات القضاء عليهم، ولإزاحتهم من مواقعهم، وكانوا هم بالمقابل يدافعون عن أنفسهم، ويعملون من أجل إفشال هذه المخططات.

وإذا كانت إيران قد نجحت إلى حدّ كبير مع حلفائها (محور الممانعة) في إضعاف الهجوم الأمريكي، وفي إضعاف إسرائيل بعد حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦، فهذا لا يعني أنّ إيران انتقلت

إلى استراتيجية الهجوم الشامل ـ حتّى لو نظر إليها العرب كذلك ـ لأن الولايات المتحدة هي التي ما تزال في وضع هجومي، ولم تتحول إلى قوة دفاعية. كما إن هذا التقدير غير صحيح في حساب موازين القوى الإقليمية والدولية الراهنة، لأن تراجع الولايات المتحدة لا يعني أن إيران هي التي أصبحت ذات اليد الطولى، بل يعني أن إيران استطاعت الصمود وحماية نفسها، وأن ما قامت به كان مشروعاً دفاعياً، حقّق لها الكثير من عناصر القوة والقدرة على المناورة التي افتقدتها القوى الأخرى، التي التحقت بالمشروع الأمريكي لحماية نفسها.

ربما يهدف تضخيم الدور الإيراني في الشرق الأوسط، وجعله أهم وأقوى حتّى من الدوريْن، الأمريكي والإسرائيلي، وأقدر منهما على «الهيمنة»، إلى قطع الطريق على أي محاولة للتقارب العربي ـ الإيراني عموماً، والخليجي ـ الإيراني خصوصاً، وإلى تبرير وتسويق مشاريع التقارب العربي ـ الإسرائيلي. وربما يريد البعض من تضخيم هذا الدور تسويغ استمرار التحالف مع الولايات المتحدة والتماهي مع أولوياتها الإقليمية.

إن النظر بواقعية إلى «مشروع إيران الدفاعي» في المنطقة بمدّه وجزره، مقارنة باستراتيجيات القوى الأخرى، الهجومية والتوسعية، خاصة الولايات المتحدة وإسرائيل، يمكن ويجب أن يغيّر الكثير في اتجاه مستقبل أفضل للعلاقات العربية ـ الإيرانية □

متوفر لدى موزع مطبوعات مركز دراسات الوحدة العربية في مملكة البحرين،

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

(شارع السلمانية، ١٧١ بناية الشيخ راشد،
ص. ب: ١٥٦، المنامة – البحرين، هاتف ٣٩٨٢٨٦٦)

- **من منشورات المركز والمطبوعات التي يوزعها،**

الكتب التالية:

- رؤية في القضايا العربية: القومية العربية ـ الوحدة العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ المثقف العربي والديمقراطية.
- البنية الاقتصادية في الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع.
- مجلس التعاون لدول الخليج العربية: قضايا الراهن وأسئلة المستقبل.
- استراتيجية البرنامج النووي في العراق في إطار سياسات العلم والتكنولوجيا.
- الحوار القومي ـ الإسلامي.
- مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير.
- وقع العولمة في مجتمعات الخليج العربي: دبي والرياض أنموذجان.
- حال الأمة العربية، ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨: ثنائية التفتيت والاختراق.
- الانتخابات الديمقراطية وواقع الانتخابات في الأقطار العربية.
- النزاهة في الانتخابات البرلمانية: مقوماتها وآلياتها في الأقطار العربية.